بين حراء . . . وعرفات

للأستاذ عبد المنعم خلاف

وقف الرجل الذى تلخص فيه مجد الانسان وتحقق به وشاع منه على عرفات فى حجة الوداع ،وقد احتشدت حوله فى ذلك الرحب الصامت الرهيب الذى فيه أول بيت وضع للناس ، الأزمانُ والدهور وأرواح الملأ الأعلى والرسل والحكماء وأعضاد الانسانية وحاملى المشاعل على طريقها ، وأفواج الخلائق من عالم الذر والبرزخ ، وأجسادُ أولئك المتجردين من لبس المحيط والمخيط من صحابته المخبتين . . ومن فوق الحَشْد الخَفِيِّ والمستعلن ينظر وجه الله ذو الجلال إلى عبده ورسوله وهو يلقى الكلمة الخاتمة للبلاغ الأخير بالآيات المنزّلة من حول العرش : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » . . . ويعلن حقوق الإنسان وواجباته ويسأل الجموع المحشودة : هل بلغتُ ؟ فتردد البطاح والأودية والشعاب التى كان يأوى إليها فى طلب الهدى ثم فى التخفى بالدعوة ثم فى الجهاد لها ـ الجوابَ الاجماعى فى اقرار وشكران

وما بدٌ من أن الكلمة الأولى : « إقرأ باسم ربك ... » ، التى طالعه بها الوحى فى « حراء » كانت تتردد على سمعه فى تلك البرهة الخالدة ، فتتوالى أمام مخيلته عزائم جهاده فى الأرض التى كان كل قدس فيها رجسا ، وكل برّة فجرة ، وكل امرىء آثما فى عقيدة القلب ، خرَفاً فى رأى العقل ، ضارياً فى معاملة الخَلق ، طفلا فى طقوس العبادة ... أيام أن كان يتخفى بالغار فى حيرة وانفراد ورهبة وصمت وشك وفراغ ، وأعصاب مرهفة ، وقلب مفجوع بالضلالات المعقدة ، وعقل عظيم ، ولكنه أمى ينظر إلى كون مبهم مختلط نظرا لا يقع إلا على قمم الجبال وصفرة الرمال وأمم تحنو على أصنام من الأناسى والأحجار والأخشاب ، ومواكب من النجوم تبدأ كل يوم من الشرق وتروح إلى الغرب فى قهر وصمت وطواعية ووجوم ... وهو ذا الآنَ على عرفات فى استعلان ومعرفة وحشد وطمأنينة وضجة ويقين وامتلاء فى العقل من عالم الشهادة ، وفى الروح من عالم الغيب ، وفى اليد من أجساد العباد الذين لم يؤمنوا به حتى أحبوه أكثر من نفوسهم التى بين جنوبهم ، فهم فى يده يقذف بهم على كل أفق وتحت كل كوكب ليكونوا امتدادا منه وظلا من دعوته . . وقد امتلأ قلبه بالأمل الواثق بان الله متمٌ نوره ومعلٍ كلمته . وقد شبع عقله من جوعٍ إلى المعرفة واتصلت به شرارة الوحى ، وانتهت إليه ينابيعه فأضاء وصفا وعمُق ، ففيه لبنى الإنسان الهدى والحلى والطهر .

وقد تعوّض نظره من رءوس الجبال التى حول حراء ، برءوس خاضعة من النساء والرجال الذين رباهم ثلاثا وعشرين حجة فى كل يوم بآية من الكتاب أو جملة من بيانه أو فعلة من سلوكه أو إيماءة أو صمت . . حتى صُقلوا وصاروا أناسا كالنجوم المصابيح .

***

بين الكلمة الأولى الآمرةِ المغريةِ المثيرة لعقله وروحه بقصة خلق الإنسان ذلك الكون العجيب من علَق ، وقصةِ القلم ذلك الشىء العجيب الذى يجعل الدنيا كلمات بين البنان واللسان : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علَق . اقرأ وربُّك الأكرمُ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » ، وبين الكلمة الأخيرة المخبرة الهادئة الممتنة بكمال الدين واختيار الطريق : « اليوم أكملت لكم دينكم . . . » . . . دار الفلك ثلاثا وعشرين دورة على محور من ذلك الرجل الذى كان عقله مرآة لما يدور فى السماء حول صلاح عُمّارِ الأرض . وها هو ذا يقف معلنا «أن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» وأن حركة بدء واستهلال وولادةٍ ثانية للإنسانية تتمخض عنها الأيام الوالدات ...

وإنها لكلمة ثقيلة التبعات لأنها حديث عن ابتداء الزمن واستدارته كهيئته فى اليوم الأول . ! ومنذا الذى يجرؤ على الحديث بها إلا أن يكون نبيا ؟

إذاً هو الأب الثانى للبشر وُلدت منه الإنسانيةُ ولادة روحية وعقلية كما ولدت من آدم بالجسد . ألم يستدر الزمان معه كما بدىء مع آدم ؟ ألم تبلغ البشرية به رشدها وتترك طفولتها وسفهها ووقوفها عند المحسّات من الأرباب والمعجزات ؟ ألم

يسلمها مفاتيحَ الطبيعة ويُهبُ بها إلى الفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، وكيف بدأ الخلق ؟ ألم يرفع الحجب والشفاعات بينها وبين ربها الأقرب إليها من حبل الوريد ؟ ألم يمح الفوارق بين أجناسها وألوانها وأوطانها كما يمحو الأب الحانى الفوارق بين بنيه من الجسد والروح ؟ ألم ينهها أن تقفو ماليس لها علم وأن تتبع الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا ؟ ألم يدعها إلى أن تؤمن بجميع الرسل والأنبياء وبما أنزل الله من كتاب ؟ ألم يعلن حقوقها وواجباتها وأخوتها ومساواتها والعدل بينها ؟ « لأن ربها واحد وأباها واحد» ألم يترك لها ميراثاً خالداً منظماً مستوعباً شؤونها وحيواتها فى البيت والجماعة والحرب والسلم والعاجلة والآجلة ؟ ولم يترك موقفه الأخير منها وهى أمامه فى عرفات ممثلة فى الحبشى بلال الأسود والرومى صهيب الأصفر والفارسى سلمان الأبيض والعربى فى العدد الأكثر إلا وقد أخذ منها قراراً بابلاغه الأمانة وأدائه الرسالة وأشهد الله على ذلك . ولو سكتوا لنطق الحصى الذى كان يرجم به فى بدء الدعوة وحطام الاصنام التى هشمها بيمينه فى يوم الفتح . .

أيها الرسول المنقذ ! كلمة إقرار بالبلاغ يرسلها القرن الرابع عشر فى فجر عام جديد لتلحق باقرار صحابتك فى فجر القرن الأول ويوشك الزمن أن يأخذ هذا الاعتراف من أفواه أهل الأرض جميعاً بعد أن ابتدأوا يعرفونك وينصفونك .

لقد بلغتَ كتاب الدنيا ورسالةَ كل شيء ، إلى القلوب السليمة الكبيرة فجعلت من كل شيء محراباً تقف فيه لعبادة الله ذى المجد ، وحب الحق والخير والجمال . .

ولا يزال صوتك يدوى فى الآفاق مخترقاً أربعة عشر قرناً بسرعة الشمس والضوء ، ولن يزال كذلك يعلن الكلمة التي أضاءت لها الظلمات وقام عليها صلاح العالم .

* * *

الحقوق والواجبات التى خصصت حياتك لتقريرها وأعلنتها فى الخطبة الجامعة على الحشد الذى لم تلقه بعد كما توقعت . . صارت أبجدية الانسانية ومزمور أمانيها ، حملها العباد الذين كلفتهم حملها ممن شهدوا مقامك وسمعوا بلاغك أو سمعوا به ، . حملوها أنهارا تجرى من الصحراء أرض الجفاف إلى الوديان والسهول المخصبة بالنبات ، الكنزة المجدبة من فضيلة الإنسان . فامرعت بالخير والحق والجمال والسلام

وقد ثارت البشرية لهذه الحقوق بعدك ثورات عدة كلما بدأت رءوس الأصنام البشرية أو الحجرية تتحرك بعد أن قمعتها وحطمتها ببرهانك وفصلك . . فالثورة الانجليزية لإقرار الشورى ، والثورة الفرنسية لإعلان حقوق الانسان . . إنما هما صدى يحكى فى خفوت وضآلة وبطء وتخلف ، ثورتك الكبرى على الأرباب الزائفين والطواغيت وعناصر الدمار والفساد التى تا فك الانسانية وديعة الله فى الأرض وتصرفها عن وجه الله ذى الجلال ومقام الحق ونصاب العدل

وشتان مابينها وبينهما ! إنها ثورة رجل يهتف فى بوق النبوة له قلب فيه مَدَدٌ من هدى الوحى ، وسلام من رحمة الروح ، وله يد بريئة من الإثم والجبروت تضرب أحيانا بمبضع الطبيب لإذهاب الألم لا لاحداثه . وكلاهما وبخاصة الفرنسية ثورة دامية قاسية عمياء ضارية ، قامت بها أيدٍ أرضية حيوانية فيها أظافر ومخالب . . تدفعها قلوب فيها أطماع وغل وحقد مؤرث . ومن عماها أكلت الحطب والأيدى التى كانت تقدمه ، ولطخت وجه الحرية بمآثم وشناعات لاتزال تغض منها وتثير حول ذكراها سخطا واشمئزارا ، والتاريخ ميزان .

(بغداد) عبد المنعم خلاف

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً